

## التنظير "النقدي" للعلاقات الدولية: نحو تجاوز إخفاقات النظريات "التقليدية".

الدكتور: محمد الطاهر عديلة

كلية الحقوق والعلوم السياسية

جامعة المسيلة. الجزائر

مقدمة:

تشغل "النقدية" حيزا مهما ضمن أهم النظريات ما بعد الوضعية (التأملية) التي برزت في ثمانينيات القرن العشرين. ولقد جاءت كرد فعل على هيمنة وإقصائية التيار الوضعي- العقلاني المتمثل في التوليفة نيو- نيو (الواقعية الجديدة مع الليبرالية الجديدة)؛ وكمحاوله لتنتيخ الإرث الماركسي وإعادة إحيائه وبعثه من جديد، ليصبح قادرا على المنافسة النظرية مع باقي النظريات الموجودة في الحقل؛ وكمشروع فكري وعملي للعلاقات الدولية يتجاوز رانها النظري (هيمنة النظريات العقلانية) وواقعها العملي (عالم رأسمالي)، نحو آفاق جديدة من العدالة والمساواة بين الأفراد والمجتمعات والدول. فإلى أي مدى استطاعت النظرية النقدية تحقيق ذلك؟

أولا: دلالات توصيف "النظرية النقدية".

يجد الباحثون المتخصصون في مجال العلاقات الدولية صعوبات بالغة في إعطاء معنى دقيق لما نقصده بالنظرية النقدية، بل ويختلفون بشأن التسمية في حد ذاتها. إذ اعتبروها وعاء لغويا فضفاضاً وواسعاً جدا، قد يضم النظريات الموجودة جميعها وتلك التي قد توجد فيما بعد، لأن كل نظرية هي "نقدية" بمعنى ما<sup>1</sup>. كما أن مصطلح "نقدي" لا يمكن أن يكون حياديا كوصف، إذ لا يمكن استعماله لوصف أحكام الواقع، وإنما لوصف أحكام القيمة. فهو يعبر عن ذاتية الواصف وتفضيلاته، وبالتالي فإن محتوى مصطلح "نقدي" هو تابع لسياق معني ما حسب التوظيف والإستعمال، فهو لا يخل من بعد سياسي أو اجتماعي أو ثقافي... إلخ. وبناء عليه، فما يعتبره مُنظّر ما نقدا يمكن أن يعتبره آخر دوغما (Dogmatic)<sup>2</sup>، مما يجعله من الناحية العملية غير مجد وغير مفيد في تمييز النظريات بعضها من بعض.

في مجال العلاقات الدولية مثلا، نجد من يطلقه على حزمة من النظريات دون غيرها. فأكسندر ونت يعتبر أن النظرية النقدية للعلاقات الدولية ليست نظرية واحدة، بل هي عائلة من

التنظير "النقدي" للعلاقات الدولية: نحو تجاوز إخفاقات النظريات "التقليدية"

النظريات التي تضم ما بعد الحداثيين والبنائيين والنيوماركسيين والنسويين بالإضافة إلى آخرين، والشيء الذي يوحدهم ويميزهم في الوقت نفسه عن باقي النظريات الدولية الأخرى هو اهتمامهم بمسألة البناء الاجتماعي للسياسة العالمية<sup>3</sup>. من جهتها، ترى كيمبرلي هاتشينغس أن هناك على الأقل أربعة مواقف تدعي أنها تمثل نماذج للنظرية النقدية للعلاقات الدولية<sup>4</sup>:

- 1- النيوغرامشية: التي اشتغلت على الإقتصاد السياسي العالمي والسياسة العالمية وأبرز ممثلها روبرت كوكس.
- 2- النظرية المعيارية: وحامل لوائها أندرو لينكلايتر الذي اعتمد على أعمال مدرسة فرانكفورت، وبصفة خاصة على أعمال يورغن هابرماس.
- 3- ما بعد الحداثة: ويمثلها كل من ريتشارد أشلي ووالكر وجيمس دير داريان وجينس بارتيلسون، حيث اشتغلوا على أعمال الفلاسفة ما بعد البنيويين مثل ميشال فوكو وجاك دريدا.
- 4- النسوية: والتي مثلتها كل من جين إيلشتاين وسينثيا إينلوي وكريستين سيلفستر وسبايك بيترسون وربريكا غرانت وكاثلين نيولاند وأن تيكنر، واللواتي استلهمن من عدد واسع من التقاليد الفكرية ضمت الفكر الماركسي، مدرسة فرانكفورت، ما بعد الحداثة.

تقول هاتشينغس أنه رغم هذا التنوع الواضح في المقاربات النظرية التي تصنف في خانة النظرية النقدية للعلاقات الدولية إلا أنها تتقاسم بعض الخصائص والأهداف المشتركة، فكلها انخرطت في عملية تَقْفِي وتحدّي التفسيرات والأحكام التي قدمتها الواقعية الجديدة بخصوص السياسة الدولية<sup>5</sup>.

إذن، تسمية "النظرية النقدية" تطلق على تلك النظريات أو المقاربات الفكرية للسياسة العالمية التي تتبنى وجهات نظر فلسفية وإبستمولوجية ومنهجية بديلة عما تقدمه نظريات الإتجاه السائد أو النظريات العقلانية. ويمكن تقديمها بشكل آخر على أنها تلك النظريات التي تموقعت في الجانب التأملي من النقاش الثالث.

لكن، حتى وإن اجتمعت وتوحدت هذه النظريات النقدية على رفض نظريات الإتجاه السائد، فإن ما يفرقها أكبر بكثير مما يجمعها. وبالتالي، لا يمكن وضعها جميعها في الدرجة نفسها من نقد ورفض أطروحات الفلسفة الوضعية بمختلف توجهاتها الأنطولوجية والإبستمولوجية والمنهجية. كما أن أصولها الفكرية والفلسفية متعددة من أقصى فلسفات الليبرالية إلى أقصى فلسفات الماركسية، وطموحاتها وأهدافها تختلف كذلك. إلا أن ما يقصده الباحثون بالنظرية النقدية - على الأغلب - هي تلك المنحدرة من أصول ماركسية.

التظير "النقدي" للعلاقات الدولية: نحو تجاوز إخفاقات النظريات "التقليدية"

إن البحث في مفهوم النظرية النقدية يحيلنا إلى مدرسة فرانكفورت وروادها الأوائل مثل ماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو ويورغن هابرماس فيما بعد. وفي مجال العلاقات الدولية نجد من أبرز ممثلي هذا التيار الفكري كلا من روبرت كوكس وأندرو لينكلايتير.

قام ماكس هوركهايمر من خلال كتابه "النظرية التقليدية والنظرية النقدية" الذي ألفه عام 1937 بجمع التصورات التي عرف بها أصحاب مدرسة فرانكفورت، سواء النظرية منها أو التطبيقية<sup>6</sup>. لقد استخدم هوركهايمر مفهوم النظرية النقدية لكي يناظر به مفهوم النظرية التقليدية. ففي سبيل تمييزه بينهما يعود إلى جذور كل منهما، فالنمط التقليدي من المعرفة وضع أسسه ديكارت من خلال كتابه "خطاب عن المنهج"، بينما النمط النقدي أسسه نقد ماركس للإقتصاد السياسي<sup>7</sup>.

إسهام يورغن هابرماس جاء من خلال تمييزه بين ثلاثة أشكال للنظرية، يراها جميعها ضرورية للتطور البشري. وهذه الأشكال الثلاثة تناظر وتعكس ثلاثة مصالغ معرفية. وهنا يسبق هابرماس كوكس في الإشارة إلى ارتباط المصلحة بالمعرفة، حيث أن ما يعنيه هابرماس بالمصالح المعرفية هو أننا دائما ما نطور المعرفة لغرض معين، وتحقيق ذلك الغرض هو أساس مصلحتنا في تلك المعرفة<sup>8</sup>. وعلى هذا الأساس، كانت استنتاجاته حول أشكال النظرية كالتالي<sup>9</sup>:

- 1- المصلحة التقنية المتمثلة في السيطرة على العمليات الطبيعية واستغلالها تؤدي إلى ظهور ما يسمى بالمعرفة التحليلية التجريبية أو العلوم الوضعية.
- 2- المصلحة العملية القائمة على التفاعل البشري والذي تلعب فيه اللغة الدور المحوري تؤدي إلى ظهور ما يسمى بالمعرفة التأويلية.
- 3- مصلحة الإنعتاق والتحرر وهي مرتبطة باللغة أيضا تسعى إلى تخليص التفاعل والتواصل من العناصر التي تشوهها، وهذه المصلحة تؤدي إلى ظهور ما يسمى بالمعرفة النقدية.

إن المعرفة النقدية التي تروم الإنعتاق والتحرر، جاءت كرد فعل على النوع الأول من المصالح والمعارف أو النظرية التي تمثله، أي النظريات الوضعية التفسيرية. هذه الأخيرة يسميها روبرت كوكس بـ "نظرية حل المشكلة"، ويميزها عن النظرية النقدية. فنظرية حل المشكلة تتعامل مع العالم كما تجده عليه، وترى أن هدف النظرية هو دراسة العالم كما هو موجود، من أجل معرفة الطرق التي تعمل بها المؤسسات والعلاقات الاجتماعية؛ بينما تحاول النظرية النقدية أن تكون مستقلة عن النظام السائد، وفي الوقت نفسه تسأل كيف أتى هذا النظام إلى الوجود. فهي لا تقبل العالم كما هو موجود، بل تحاول الوصول إلى معرفة مختلف المؤسسات والعلاقات الاجتماعية، كيف جاءت؟ وكيف تتحول؟<sup>10</sup> وبتعبير فريد شيرنوف، فإن النظرية النقدية تحاول أن تقدم نقدا عاما لكل من المجتمع والنظريات التقليدية حول المجتمع<sup>11</sup>.

جاء ظهور النظرية النقدية كرد فعل على الفلسفة المثالية الألمانية في ثلاثينيات القرن العشرين. وكذلك كرد فعل على الوضعية التجريبية التي اعتبرت أن الظواهر الاجتماعية مثلها مثل الظواهر الطبيعية يمكن دراستها بطريقة علمية موضوعية، من خلال ربط المسببات بالأسباب في إطار من التصور الآلي الميكانيكي. ويمكن التمييز بين مرحلتين أساسيتين مرت بهما النظرية أو التفكير النقدي بشكل عام، فترة الريادة والرواج التي امتدت منذ تأسيس مدرسة فرانكفورت في ألمانيا في بداية الثلاثينيات إلى غاية السبعينيات من القرن العشرين، وهي الفترة التي عرفت بروز أعمال كل من هوركهايمر وماركيوز وأدورنو... إلخ؛ وفترة تجديد الفكر النقدي بداية من السبعينيات وإلى غاية الثمانينيات من القرن نفسه، وقد برز في هذه الفترة كل من يورغن هابرماس وألفرد شميت وكلاوس أوفي وألبرخت فيلمر. وقد احتفظت النظرية النقدية المُجدّدة باهتمامها الخاص بفلسفة العلوم الاجتماعية ونقد الإيديولوجيا<sup>12</sup>.

إن النظرية النقدية - كتوجه فكري - هي تنقيح وتصحيح للفكر الماركسي، جاءت من أجل نقد وتقويض الأطروحات والتصورات الإيديولوجية الليبرالية التي قام عليها المجتمع الغربي الحديث، وكذا البحث في تجليات ومظاهر الإغتراب الذاتي والمكاني، سواء في الخطابات والنصوص (النظرية) أو في واقع الممارسة.

### ثانيا: في الأصول الفكرية والفلسفية للنقدية.

كما ذكرنا سابقا فإن النظرية النقدية ترجع في أصولها الفكرية والفلسفية إلى الماركسية. وعليه، يلتقي النقديون مع الماركسيين في ضرورة تغيير واقع المجتمعات الغربية بما يتيح لها التحرر من هيمنة أفكار وممارسات الفلسفة والإيديولوجية الليبرالية، التي أنتجت طبقة "مقيدة" جعلت الشريحة الأكبر من المجتمع رهينة لمصالح فئة قليلة متحكمة.

ريتشارد واين جونس يرى أن هناك مجموعتين رئيسيتين من التأثيرات ألقت بظلالها على النظرية النقدية للعلاقات الدولية: تتمثل الأولى في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت التي تتضمن فلاسفة ومفكرين بارزين مثل هوركهايمر وأدورنو وهابرماس، وأتباعا موهوبين ومخلصين مثل هاربرت ماركيوز ووالتر بنجامين وإريك فورمان، ومن بعدهم كل من ألبريتشت ويلمر وكارل أوتو آبل وأكسل هونت. أما الثانية فتخص أعمال الإيطالي أنطونيو غرامشي.

لكن، إذا كان لكل من مدرسة فرانكفورت وغرامشي تأثير على النظرية النقدية للعلاقات الدولية بصفة عامة، فإنهما إجمالاً لم يؤثرتا على المجموعة نفسها من المفكرين، أي أن كل مصدر من المصدرين السابقين قد أثر على مجموعة من المفكرين غير تلك التي أثارها المصدر الثاني، وهذا يعني أن بعض المنظرين النقديين للعلاقات الدولية قد استلهموا من غرامشي، فيما استلهم الآخرون من مدرسة فرانكفورت، لكن نادرا ما استلهموا منهما الإثنين في الوقت نفسه<sup>13</sup>.

كوكس وهارود مثلاً، تأثرا بشكل واضح بـ غرامشي وبالمفاهيم وأنماط التحليل الغرامشية. بينما لينكلايترو وجونس وباينس فقد حددوا مصادرهم الفكرية في مدرسة فرانكفورت. والإنقسام بين هؤلاء المفكرين لم يكن مرتبطاً فقط بمصادر التأثير، ولكن كان له تأثير كذلك على التوجهات الفكرية للنظرية النقدية. فالمنظرين الذين تأثروا بـ غرامشي اهتموا بالاقتصاد السياسي، وأولئك الذين استندوا إلى مدرسة فرانكفورت اهتموا بالنظرية السياسية والمعيارية. لكن قبل كل شيء، من الواضح أن كلا من المقاربتين - الغرامشية ومدرسة فرانكفورت - يتقاسمان المصدر والأسلاف نفسهما والمتمثلين في التقليد الهيغلي - الماركسي وفي التقليد الكانطي للفلسفة النقدية كما يؤكد على ذلك كيمبرلي هاتشينغس<sup>14</sup>.

وعليه، فإذا كان الغرامشيون قد ركزوا على القاعدة الإقتصادية، والفرانكفورتيون قد اهتموا بالبنية الفوقية، فإنهما يمثلان وجهان للجانب نفسه<sup>15</sup>.

تُعبر أعمال النقيدين بصفة عامة عن إعادة رسكلة وتقويم وتجديد للطروحات الماركسية التقليدية، وذلك لجعلها قادرة على أن تواكب التغيرات الحاصلة في الفكر والممارسة معا. فلم يعد واقع وظروف المجتمعات الغربية يعبران عن التوصيفات والحلول التي قدمها الماركسيون الأوائل، كما أن العديد من النظريات الأخرى أصبح لها مركز الصدارة والإهتمام في هيكله الحقول الدراسية للعلوم الإجتماعية المختلفة، ومنها العلاقات الدولية بطبيعة الحال. بالنسبة لهذه الأخيرة، كان من الضروري إعادة مراجعة شاملة ونقدية مزدوجة: لما قدمه الماركسيون في دراسة وتحليل العلاقات الدولية وطرق وآليات تغيير الواقع الدولي من جهة، ولما قدمته باقي النظريات المنافسة من جهة أخرى.

اهتم الجيل الأول من النقيدين بمسائل تتعلق بالثقافة البيروقراطية والقاعدة الإجتماعية وطبيعة النزعة الإستبدادية وبنية الأسرة ودراسة مفاهيم العقل والعقلانية ونظريات المعرفة. وأثمرت جهودهم في توفير مصطلحات تحليلية لدور وسائل الإعلام، وما سموه بالثقافة المصنعة ( *Culture Industry*). بمعنى آخر، وبمفهوم الماركسية التقليدية، فإن النقيدين ركزوا على البنية الفوقية<sup>16</sup>.

كذلك شككوا في إمكانية التغيير الذي تقوده الطبقة العمالية وفق الطريقة التي قدمها ماركس. فنتيجة لظهور الثقافة الجماهيرية وزيادة النزعة "البضائية" في كل جوانب الحياة الإجتماعية للمجتمعات الإستهلاكية المعاصرة، تم إدماج الطبقة العمالية أكثر فأكثر في النظام الرأسمالي من خلال العديد من المزايا التي منحت لهم، وتم تحسين ظروفهم الإجتماعية والإقتصادية وبالتالي أصبحت لا تشكل تهديداً للأنظمة القائمة<sup>17</sup>. وعليه، فإن المراهنة على ثورة عمالية لإسقاط النظم الرأسمالية - كما يقترحها الماركسيون التقليديون - أضحت خياراً غير عملي ولا يتماشى مع متطلبات المرحلة الجديدة.

التنظير "النقدي" للعلاقات الدولية: نحو تجاوز إخفاقات النظريات "التقليدية"

هابرماس الذي مثل الجيل الثاني من النقيدين، وانطلاقاً من انتقاداته اللاذعة لأطروحات الماركسية التقليدية، أعاد بناءها على أسس جديدة، حيث سميت المرحلة التي دشنها بمرحلة ما بعد الماركسية<sup>18</sup>. فخلافاً لرؤية الماركسيين التقليديين الذين أقاموا فكرة التحرر من قيود الرأسمالية والليبرالية على أساس القاعدة الاقتصادية للمجتمع، فإن هابرماس يرى أن تحقيق هذا التحرر أو الوعد بمجتمع أفضل يكمن في عالم الإتصال والتواصل، بالإضافة إلى ارتباطه بديمقراطية راديكالية<sup>19</sup>. باختصار، فإن ما نحتاجه حسب هابرماس هو معرفة ونظرية نقدية تنطلق من عالم اللغة والتواصل الإنساني، لكي تحقق المصلحة الثالثة للبشرية وفق قاموسه والتي أسماها بمصلحة التحرر والإنعتاق.

شكل أنطونيو غرامشي - من جهته - مصدراً مهماً للعديد من المنظرين النقيدين، إلى درجة أنه في بعض الأحيان ترد النظرية النقدية تحت مسمى "النظرية الغرامشية الجديدة". غرامشي أراد معرفة لماذا تستمر الطبقة العاملة في مساندة النظام الرأسمالي؟ لقد قدم مفهوم "الهيمنة" (*Hegemony*) لتفسير كيف أن النظام الرأسمالي أصبح مقبولاً من طرف الجميع كأفضل نظام اقتصادي. ولم يقتصر مفهوم الهيمنة عنده على عنصر الإكراه، بل انطوى كذلك على عنصر القبول والموافقة. والذي يعني أن قيم الطبقة الاجتماعية الغنية أصبح ينظر إليها على أنها قيم عامة مشتركة. فالهيمنة هي كذلك أشكال غير ملحوظة من الرقابة الإيديولوجية والتلاعب الدائم داخل ما يسمى بالمجتمع المدني<sup>20</sup>.

إذن، من الناحية الفكرية والفلسفية، يمكن اعتبار النظرية النقدية بمثابة تجديد وإعادة بعث للمشروع الماركسي في تحرير المجتمعات الغربية المعاصرة من القيود التي فرضتها الليبرالية، ذات التوجه الرأسمالي اقتصادياً والديمقراطي سياسياً. ولكن من وجهة نظر ومفاهيم وأدوات تحليلية بديلة تعكس النظرية النقدية من خلالها التوجه العام لنظريات ما بعد الحداثة إبستمولوجياً ومنهجياً.

### ثالثاً: في البناء الإبستمولوجي والمنهجي للنقدية.

يؤسس المنظرون النقيديون لطريقهم الإبستمولوجي والمنهجي انطلاقاً من نقدهم الشديد للفلسفة الوضعية والمرتكزات التي تقوم عليها. حيث هاجموا سعيها الحثيث إلى تحقيق المعرفة العلمية المبنية على اعتبار الحقيقة كشيء معطى، موضوعية ومستقلة عن الذات، قابلة للإدراك والمعرفة عن طريق المنهج العلمي فقط. وكرفض لهذا التوجه الإبستمولوجي والمنهجي، دعا هابرت ماركيز - من خلال كتابه "العقل والثورة" الذي نشره العام 1941 - إلى نظرية اجتماعية جدلية مناقضة للعلم الإجتماعي الوضعي<sup>21</sup>.

روبرت كوكس ينطلق من فكرة نسبية المعرفة، وأن المعرفة هي ذاتها جزء من الصراع الإجتماعي، والصراع بين مشاريع هيمنة وهيمنة مضادة، إذ يقول: "إن النظرية تتبع الواقع، لكن

وبنفس الوقت النظرية تسبق وتصلح الواقع<sup>22</sup>. لقد أثار كوكس أسئلة متعلقة بالبناء الاجتماعي للمعرفة، وأراد تحدي فرضية أن العالم الاجتماعي يمكنه حقا الدراسة الموضوعية للعالم بطريقة لا يُقجم فيها مصالحه الذاتية<sup>23</sup>. وبالتالي، يجادل بأن الوضعية ليست محايدة ولا طريقا مضمونا للوصول إلى الحقيقة، بل هي نفسها تعكس مجموعة من الافتراضات حول السياسة والقوة والطبيعة الإنسانية والمعرفة. فهي نفسها تخضع للشرط التاريخي، أي ترتبط وتعبّر عن سياق تاريخي معين<sup>24</sup>. وحجة كوكس حول التاريخ والمعرفة أنشأت رابطا قويا بين "التفسيري" و"المعياري" في العلوم الاجتماعية، فبعض أنماط التفسير توجهها معايير متضمنة داخل الخطابات المهيمنة أو المضادة لها. وفي الحقيقة هذه الملاحظة تتحدى بشكل مباشر التمييز الذي يرسمه الوضعيون بين الحقائق والقيم. ترى النظرية النقدية - وعلى خلاف النظرية التقليدية التي تتخذ من العلوم الطبيعية مثلا لها - أن دراسة ومناهج العلوم الاجتماعية والإنسانية تختلف جذريا عن تلك المطبقة في العلوم الطبيعية. حيث لا تعترف بالفصل بين الحقيقة والقيمة، ولا بين الذات والموضوع، ولا بالحتمية المبنية على قوانين موضوعية تحكم التاريخ والمجتمع. وبالمقابل، تركز على مسألة تحرير الإنسان، وتسعى إلى إحداث تغيير اجتماعي جذري في حياة البشرية.

يورغن هابرماس أكد على وجود علاقة وثيقة الصلة بين المعرفة والمصالح، إذ تخدم المعرفة دائما شخصا ما وهدفا ما، فهي نتاج اجتماعي تاريخي لا يمكن فصله عن محيطه<sup>25</sup>. وعليه، فإن النظرية النقدية هي كذلك نتاج للمجتمع، لكنها تحاول في الوقت نفسه أن تتعد عنه في محاولة لفهمه وتغييره، والهدف من ذلك كما يزعم النقاد هو إمعان النظر في النظام الاجتماعي القائم وحدود المعرفة الممكنة.

إن تجسيد النظرية النقدية لا يمر حتما عبر بوابة التجريب والتفسير، وإنما من طريق آخر، طريق الفهم والتأمل. فآلن هاو يجادل بأن "التأمل" عند النقاد يعتبر عنصرا حيويا من عناصر العقل، فهو مرتبط بكلمة (*Speculum*) أو المرآة التي تعكس شيئا آخر. ونحن حين نفهم شيئا ما إنما نعكس صورته، وهو انعكاس ليس له كينونة خاصة به بل هو ما يظهر لنا في تلك اللحظة، والشخص المتأمل هو من لا يقبل على نحو عقائدي جامد هذا المظهر أو ذاك على أنه كل ما هنالك، بل يدرك أن المظاهر تعكس صورة علاقة تاريخية محددة بين الذات والموضوع<sup>26</sup>. وعليه، فلا توجد حقيقة مطلقة ولا حقيقة نهائية تتعالى عن الشك والنقد، كما أن الحقيقة هي نتاج عملية تفاعلية لحظية بين الذات والموضوع. مما يوحي بأن هناك عددا لا متنها من الحقائق تنتفي عنها صفات الموضوعية والإنتظام والتمثالية، ولعل هذا ما حدا بكوكس إلى القول بأن الحقيقة أو النظرية هي دائما لشخص ما، ومن أجل هدف معين.

التنظير "النقدي" للعلاقات الدولية: نحو تجاوز إخفاقات النظريات "التقليدية"

لقد اهتمت النظرية النقدية دائما بالكيفية التي صارت عليها الأشياء كما هي عليه، والشكل الذي يمكن أن تتخذه مستقبلا. فضمن هذا السياق يقول ماركيز "إن حقل المعرفة الفعلي ليس الوقائع المتعينة أو المعطاة عن الأشياء كما هي، بل تقويمها النقدي كمقدمة لتخطي شكلها المتعين"<sup>27</sup>. ويضيف أن التمييز الذي أقامه هيغل بين الماهية والوجود هو تمييز حاسم. بحيث يشير الوجود إلى ما يوجد فعليا، بينما تشير الماهية إلى ما يمكن أن يأتي إلى الوجود لاحقا. وكمثال تطبيقي على هذا التفكير والفهم، فإنه لكي توجد العدالة الإنسانية، ولكي تكون عدالة أصلا، لابد أن تشير وتتضمن إمكانية الإنصاف وإحقاق الحق والمساواة وما إلى ذلك. أما الشكل الذي تتخذه العدالة فعليا في زمن معين فيجب أن يوضع موضع المسألة والنقد، بغية التوصل إلى أرفع مستوى ممكن من الإنصاف والحق والمساواة<sup>28</sup>.

على الصعيد المنهجي، يتبنى المنظرون النقديون في دراستهم وتحليلهم للظواهر الاجتماعية طرقا بديلة عما تقدمه الإستمولوجيا الوضعية - التجريبية المعتمدة على المنهج الإستقرائي. ولذا يلجأون إلى أهم مناهج التحليل الماركسي المتمثلة في "الديالكتيك" أو المنهج الجدلي القائم على مفاهيم الجدلية المادية والمادية التاريخية. وذلك لكون النظرية النقدية في الأصل هي مزيج بين الماركسية والغرامشية<sup>29</sup>. ينظر النقديون إلى الواقع الإجتماعي والإنساني على أنه سيرورة أو عملية ديالكتيكية تحوي عددا من العناصر أو الأضداد المتصارعة، تعكس حالة التناقض المادي الذي يعيشه المجتمع، والذي يتجلى فيما بعد في تلك التناقضات التي تطفو على سطح البنى الفوقية. وبما أن العقل والواقع أو الفكر والمادة مترابطان على نحو صميمي أحدهما بالآخر - أي أن الفكر أو النظرية هي انعكاس مباشر للواقع، لكنها تستغل فيما بعد لتبرير وشرعنة الواقع - فإن هدف النظرية النقدية يصبح موجها نحو استقصاء والكشف عن الأضداد المترابطة ديالكتيكا التي تحكم وتحدد طبيعة المجتمع<sup>30</sup>، وتبيان آليات اشتغالها والأشكال التي تتخذها، وذلك بغية تفكيكها وإعادة بناء المجتمع المنشود.

يمكن القول أن النظرية النقدية هي نظرية تكوينية، جاءت من أجل تغيير المجتمع على جميع المستويات والأصعدة، وتحقيق التحرر البشري، والمؤالفة بين النظرية والممارسة، والجمع بين المعرفة والغاية، والتوفيق بين العقل النظري والعقل العلمي، والمزاوجة بين الحقيقة والقيمة. فهي تهدف إلى إقامة نظرية إجتماعية متعددة المصادر والمنطلقات.

رابعا: في الإسهام النظري النقدي في العلاقات الدولية.

يلتقي المفكرون النقديون المهتمون بدراسة مسائل السياسة الدولية حول فكرة أساسية مفادها أن دراسة العلاقات الدولية يجب أن تهتم بكيفية تحرير الجنس البشري من القيود

الإقتصادية والسياسية والإجتماعية التي فرضتها تطورات الرأسمالية العالمية، والتي أنتجت نظاما عالميا ارتكز على بنى وهياكل عكست فروقات واضحة وعدم مساواة في القوة والثروة<sup>31</sup>.

تنطلق النظرية النقدية من فكرة أن العمليات المعرفية ليست بمنأى عن تأثير وتجاذبات المصالح السياسية المختلفة، وأن نظريات العلاقات الدولية ليست استثناء من هذه القاعدة أو المسلمة. فالإعتراف بأن العالم الإجتماعي هو واقع تم بناؤه إجتماعيا، وجب تطبيقه أيضا على النظرية ذاتها، مما يعني استحالة فصل الواقعي عن المعياري. فلا تستطيع أي نظرية مهما ادعت من حيادية وموضوعية منع التوجه المعياري في اختيارها للمعطيات، وفي تفسيرها لها، وفي اعتبار الدراسة شرعية ومهمة<sup>32</sup>. فالنظرية تَعكس وتُصاغ من خلال التأثيرات الإجتماعية والثقافية والإيديولوجية. وبالتالي، فإن المهمة الأساسية للنظرية النقدية للعلاقات الدولية هي الكشف عن أثر هذه المحددات.

يَعتبر النقاد أن الشكل العالمي لعلاقات القوة هو الموضوع الأساسي للنظرية النقدية. وعليه، تتساءل هذه الأخيرة حول كيفية تشكل هذه العلاقات؟ وما آثارها؟ وما البدائل الممكنة لهذا النمط من علاقات القوة؟<sup>33</sup> فالنقاد يوسعون من مجال دراسة العلاقات الدولية ليتجاوز الإفتراضات المعرفية والفلسفية للنظريات السائدة إلى علاقتها وارتباطها بالأبعاد السياسية السائدة، ولا يكتفون بنقد الوضع القائم أو النظريات السائدة في مجال العلاقات الدولية، بل يحاولون تغييرهما بما يعزز فكرة المساواة والعدالة بين جميع الشعوب والمجتمعات.

يورغن هابرماس حدد وظيفة نظرية العلاقات الدولية بقوله "إن مهمة نظرية العلاقات الدولية لا تقتصر فقط على تغيير الطريقة التي من خلالها ننظر إلى العالم، ولكن مهمتها تكمن أيضا في تفسير العالم، لا بد أن تعطينا علاوة على الوصف الصرف، عرضا بشأن الأحداث الراهنة، كما يتوجب عليها أن توفر لنا تحليلا نقديا وخيارا هاما وملائما لنوعية وكيفية إدارة العالم"<sup>34</sup>.

وروبرت كوكس، من خلال تطبيقه المنهج النقدي على دراسة العلاقات الدولية، ومن خلال تمييزه بين نظريات "حل المشكلة" والنظرية النقدية، يصل إلى أن النظرية النقدية تسأل: كيف أتت الترتيبات العالمية الحالية إلى الوجود؟ وكيف يمكن تغييرها؟ فهذه المقاربة أو النظرية تهدف إلى تمييز ما يسميه كوكس بـ "حركات الهيمنة - المضادة" التي تتحدى "المبادئ والبنى المهيمنة"، وتحاول إيجاد طرق بديلة للسياسة العالمية<sup>35</sup>.

ومن أجل نقد التفكير الكلاسيكي حول العلاقات الدولية، يحاول كوكس لفت الإنتباه إلى مجموعة من الشروط التي تؤثر على السياسة الدولية، تتضمن عوامل اقتصادية وثقافية وإيديولوجية. ويجادل بأن المنظر الذي لا يأخذ هذه العوامل بعين الإعتبار في دراسة العلاقات بين الدول، فإن عمله سيكون مجرد استنساخ وإعادة إنتاج وتعزيز للحس العام السائد في عصره<sup>36</sup>. وهذا ما تفعله النظريات التقليدية وعلى رأسها الواقعية التي تحاول تثبيت الوضع الدولي القائم، تحت

التنظير "النقدي" للعلاقات الدولية: نحو تجاوز إخفاقات النظريات "التقليدية"

غطاء من خضوعه لقوانين موضوعية ومستقلة تحكمه. وبالتالي، حصر مهمة الباحث والمُنظّر في تحسين طرقه وأساليبه ومناهجه بغية الوصول إلى كشف هذه القوانين وتفسيرها.

يرفض النقاد النظرية الوضعية القاصرة والمتحيزة لطبيعة السياسة العالمية ودور النظرية فيها. إذ عملوا على مهاجمة القواعد والأسس التي بنيت عليها النظريات التقليدية، مركزين نقدهم على الجوانب الإبيستمولوجية، وعلى فلسفة العقل، وأنماط المعرفة وعلاقتها بالإيديولوجيا والمصلحة والقوة كما ذكرنا سابقاً. لأن النقاد يدركون ويُسلمون بفكرة الإرتباط القوي بين المعارف والمصالح، وباستحالة فصل القيم عن الحقائق والموضوع عن الذات. وعليه، نظروا إلى الإدعاءات المعرفية التي تسوقها الواقعية حول حقيقة وطبيعة السياسة الدولية على أنها مجرد وجهة نظر ومعتقدات، بل وإيديولوجية توشحت بثوب النظرية العلمية، لتضفي صبغة من الشرعية على ترتيب عالمي معين. وهنا يبرز دور النظرية النقدية في إزالة هذا القناع من خلال بناء فهم ومعان أكثر عمقا واتصالاً بالطبيعة الحقيقية (الإجتماعية) للحياة الإجتماعية ككل<sup>37</sup>.

يعتقد النقاد أن الفهم الجيد للسياسة العالمية يمر عبر بوابة البحث عن أصل المؤسسات السياسية الدولية، وشرعيتها، وطريقة تغييرها مع الوقت. حيث يتم النظر إلى التاريخ باعتباره عملية تغيير مستمرة لهياكل النظام الدولي ووظائفه. وبالتالي، يتجلى دور النظرية النقدية في تحديد أي العناصر عملية في النظام الدولي أو العالمي وأنها متغيرة تاريخياً<sup>38</sup>.

مثلت أعمال الواقعيين وخاصة الجدد منهم نقطة انطلاق لإسهامات المنظرين النقاد في مجال العلاقات الدولية. حيث هاجموا بشكل كثيف وحاد مزاعم الواقعية الجديدة حول قدرتها على بناء وتقديم نظرية "موضوعية" من الناحية العلمية، و"حيادية" من الناحية المعيارية. ورأوا في ذلك تجاوزاً وقفزاً على الطبيعة الإجتماعية المعقدة للسياسة الدولية، وكذا تداخل وتشابك وتفاعل أبعادها المختلفة، كما أنها تختلف كلية عن طبيعة الظواهر الفيزيائية. وعليه، من الصعوبة البالغة الحديث عن نظرية علمية تفسر الظواهر السياسية الدولية مثلما تفعله في مجال العلوم الطبيعية والفيزيائية. فعقلانية الواقعيين بتعبير كوكس، لا تعدوا أن تكون أكثر من معيارية مستترة تستجيب لمصالح طبقة إجتماعية محددة<sup>39</sup>.

وفي الصدد نفسه، يفند النقاد إدعاء الواقعيين باستقلالية الحقل الأكاديمي للعلاقات الدولية التي تجعل من العمل التنظيري بعيداً عن تجاذبات وإغراءات السياسة والمصالح. ويتساءلون عن أي من البحوث يمكن أن تكون مجردة وغير خاضعة للمصالح المادية، خاصة ما أثبتته دراسات متخصصة في الولايات المتحدة الأمريكية من أن الميزانية المرصودة للبحوث في الميدان الأمني مثلاً تفوق ميزانية دول أخرى، مما جعل الأبحاث الأمريكية تسجل هيمنة كبيرة على حقل العلاقات الدولية<sup>40</sup>.

انتقد كوكس الواقعية الجديدة كذلك من حيث منظورها اللاتاريخي في تحليل السياسة الدولية، وذلك حينما نظرت إلى البناءات التاريخية كحقائق أبدية مؤكدة، وأغفلت حقيقة أنها قد أتت من خلال تفاعل معقد بين الدول وباقي القوى الأخرى تحت الدولة وفوق الدولة<sup>41</sup>.

رفض النقاد مفهوم الفوضى الأبدية للواقع الدولي كما قدمه كينيث والتز، والذي يؤدي إلى قيام تنافس دائم بين دول ذات سيادة لحماية مصالحها الوطنية واستقرار الترتيب العالمي القائم. فحسب كل من وليامس وكروس، فإن الفوضى وحتى المصلحة الوطنية هي ليست تعبيراً عن قوانين طبيعية تتسم بالثبات والشمولية، بل هي سلسلة من الافتراضات والظروحات حول الطبيعة السياسية للفاعلين وعلاقتهم بفكرة السيادة. ويذهب في الإتجاه نفسه كل من آجنو وكوربريدج، حينما أكدوا على أن "الدولة" و"الفوضى" هما بناءات تاريخية في إطار علاقات اجتماعية عالمية وداخلية، ناتجة عن عملية بين ذاتانية بين إنشاء الدولة والنظام الدولي<sup>42</sup>. كوكس من جهته كذلك، هاجم التوافق الفكري والنظري بين الواقعية الجديدة والليبرالية الجديدة حول مفهوم الفوضى (على اختلافهما بشأن النتائج المترتبة عنها)، واعتمادهما على نظرية الاختيار العقلاني في تحليل واستشراف النتائج والآثار المتوقعة بشأنها. فإذا كانت التوليفة نيو- نيوتقبل الفوضى كشيء مسلم به وتبحث عن آليات ووسائل للتقليل من أسوأ الآثار الجانبية لها، فإن المقاربات الجديدة وفي مقدمتها النظرية النقدية تعمل على تفكيك وإعادة بناء مفهوم الفوضى الدولية، بوصفه يعبر عن بناء اجتماعي، وعن عملية تفاعلية تشترك فيها جميع الفواعل السياسية. وفي الوقت نفسه، كشف كيف أن المعنى المُعطى لمفهوم الفوضى يبرز وجهات نظر ومصالح معينة ويُقصي أخرى<sup>43</sup>.

من خلال نقده للمفهوم الواقعي للفوضى، حاول كوكس نقل الإهتمام من التركيز على النظام السياسي الفوضوي - الذي كان الموضوع الأساسي للتحليل الذي انطلق منه والتز - إلى التركيز على نظام الإقتصاد السياسي العالمي، وعلى أشكال الهيمنة والسيطرة الموجودة فيه. فإذا كان والتز قد جادل بأن الفواعل السياسية ليس لها خيار في أن تخضع للقيود المتأصلة في الفوضى الدولية، فإن كوكس يجادل بأن العديد من القوى السياسية هي على الأقل منخرطة في أعمال وجهود جماعية لتغيير المبادئ التي تحكم التنظيم السياسي العالمي<sup>44</sup>.

إذن، لا تكتف النظرية النقدية بنقد ومساءلة الواقع الدولي القائم، وإنما تقدم مشروعاً سياسياً تسعى من خلاله إلى إقامة تنظيم سياسي جديد للعالم، يكون بديلاً عن سابقه القائم على المركزية الدولية النابعة من المفهوم الواقعي للسياسة الدولية. هذا التنظيم الجديد - حسب التصور النقدي - سيكون أكثر شمولية من حيث عدد الأطراف المشكلة له، وأكثر عدلاً وإنصافاً ومساواة بين هذه الأطراف.

التظير "النقدي" للعلاقات الدولية: نحو تجاوز إخفاقات النظريات "التقليدية"

- وكما يرفض النقاد النظر الواقعية لطبيعة النظام الدولي، فإنهم يرفضون كذلك نظرتهم لطبيعة الدولة. ولقد حددوا انتقاداتهم لفكرة الدولة في ثوبها الواقعي في ثلاثة أبعاد<sup>45</sup>:
- 1- البعد المعياري المتعلق بالانتقاد الفلسفي للدولة كشكل استيعادي من التنظيم السياسي، بمعنى أنه يستبعد من هم خارج نطاقها الإقليمي.
  - 2- البعد الاجتماعي المرتبط بالحاجة إلى تطوير تفسير لأصل الدولة وتطور الدولة الحديثة ونظام الدول.
  - 3- البعد التطبيقي الخاص بالإمكانية العملية لإعادة هيكلة العلاقات الدولية لتكون أكثر تحررية وعالمية.

إن تحقيق النقطة الأخيرة والمتعلقة بالبعد التطبيقي يقتضي من النظرية النقدية البحث عن أشكال أخرى من الجماعة السياسية غير تلك التي تمثلها الدولة القومية الحديثة. وعليه، فإن المشروع النقدي في هذا الصدد ارتكز على محورين أساسيين<sup>46</sup>:

- 1- إعادة هيكلة الدول الحديثة ونظام الدول، للسماح بتطور مستويات أعلى من العالمية، من خلال العمل على تجريد الدولة من القوى التي تحتكرها، وإحلال نظام الدول ذات السيادة بهيكل من الحكم العالمي.
- 2- العمل على زيادة احترام الاختلافات الثقافية على المستوى العالمي، حتى يتم إزالة التعارض بين واجبات المواطن كمواطن وواجباته كإنسان في المقام الأول، من خلال التحرك نحو أشكال أخرى من الجماعة السياسية.

في هذا المجال يعد أندرو لينكلايتير أحد أبرز المنظرين النقاد الذين اهتموا بضرورة البحث عن أشكال بديلة عن الدولة كإطار وشكل للتجمعات البشرية، بسبب أن الدولة ككيان سياسي واجتماعي واقتصادي على درجة عالية من الإستثناء والإقصاء<sup>47</sup>. ومستفيدا من المفاهيم التي طورها هابرماس، يصل لينكلايتير إلى نتيجة مفادها أن التحرر في عالم العلاقات الدولية يجب أن يكون في إطار مفاهيم التوسع والحدود الأخلاقية للجماعة السياسية. أي أنه يُساوي عملية التحرر بعملية فقدان سيادة الدولة لأهميتها الأخلاقية والمعنوية نحو أطر سياسية واجتماعية أوسع، ولن يتم هذا إلا بالتحول بشكل كلي عن المؤسسات والحكومات الحالية إلى مؤسسات المجتمع العالمي<sup>48</sup>.

بصفة عامة، يمكن القول أن النظرية النقدية جاءت لتصحيح أوضاع المجتمع وتغييرها، وذلك عن طريق تعرية المؤسسات الرأسمالية المهيمنة وفضح أوهامها الإيديولوجية، وتطوير المفاهيم الماركسية في ثوب جديد أو إعادة صياغتها مرة أخرى كما فعل يورغن هابرماس.

لقد عدد لينكلايتير إنجازات النظرية النقدية للعلاقات الدولية فيما يلي<sup>49</sup>:

التنظير "النقدي" للعلاقات الدولية: نحو تجاوز إخفاقات النظريات "التقليدية"

- 1- بينت أن المعرفة هي دائما تعكس أهدافا ومصالح اجتماعية موجودة مسبقا. وفي سياق التنظير للعلاقات الدولية قادت هذه الحججة إلى انتقادات قوية لنظرية الإختيار العقلاني.
  - 2- تعارض النظرية النقدية الإدعاءات القائلة بأن البنى الموجودة في العالم الإجتماعي ثابتة وغير قابلة للتغيير. وبالمقابل، تفحص فرص إيجاد أكبر قدر من الحرية في العلاقات الإجتماعية.
  - 3- النظرية النقدية تعلمت من/ وتغلبت على نقاط الضعف التي لازمت الماركسية مؤكدة على أشكال التعلم الإجتماعي. ومستفيدة من جهد هابرماس في إعادة هيكلة وبناء المادية التاريخية، فاتحة بذلك إمكانات جديدة لبناء سوسيولوجيا تاريخية بأهداف انعتاقية وتحريية.
  - 4- النظرية النقدية تحكم على الترتيبات الإجتماعية من خلال قدرتها على تبني حوار مفتوح مع الآخرين، وتقديم أشكال جديدة للجماعة السياسية تتنافى مع الإقصاء غير المبرر.
- لكن، وككل نظرية قُدمت لتفسير أو فهم العلاقات الدولية، لاقت النظرية النقدية انتقادات عديدة سواء من جانب العقلانيين أو من جانب التأمليين أنفسهم. فمن جانب العقلانيين، رُفضت النظرية جملة وتفصيلا، كونها لا تتبنى الأطر الإستمولوجية والمنهجية للوضعية. وبالتالي، لا يمكنها تقديم نظرية علمية تشرح وتفسر سير العلاقات الدولية، فضلا عن أنها محملة بالقيم وتعكس بشكل صريح وواضح المبادئ والإيديولوجية الماركسية. أما من جانب التأمليين، فإن النقد الأكبر جاء من طرف مفكري ما بعد الحداثة الذين رفضوا المشروع النقدي القائم على فكرة الإنعتاق والتحرر، والقدرة على التمييز بين طرق عمل القوة وطرق عمل الحرية. فحسبهم، لا يوجد معيار ثابت نقيس به ونحكم على أساسه أن نسخة من السياسة الدولية هي أفضل من الأخرى (لأنهم ضد الأساسية)، ويجادلون أن استعمال مفهوم الإنعتاق أو التحرر (*Emancipation*) كأساس لنقد الوضع النظري والعملية القائم هو نفسه سلطوي وإقصائي. وبالتالي، هم يشكلون (*problematizes*) فكرة أن هناك تميزا واضحا بين القوة والمعرفة. ولهذا السبب، يتهم ما بعد الحداثيين المنظرين النقديين أمثال كوكس ولينكلايتر بأنهم يعتمدون على افتراضات غير نقدية حول "معيار الحكم"، والتي تجعل من النظرية النقدية تنهار وترتد إلى الماركسية والمثالية الليبرالية<sup>50</sup>.
- لقد وقعت النظرية النقدية في مصيدة الإنتقاد الذي وجهته للنظرية عموما، حينما ربطت المعرفة والنظرية بالمصلحة. وبالتالي، فهي كذلك منحازة وتخدم توجهات وأجندات معينة، تحت غطاء من التحرر والإنعتاق من هيمنة النظريات السائدة.

الهوامش:

<sup>1</sup> قاموس بنغوين، مادة: "النظرية النقدية/ ما بعد الحداثة". على الرابط:

<http://dc444.4shared.com/doc/6yOFGQCy/preview.html>

- <sup>2</sup> Milja Kurki and Colin Wight, « International Relations and Social Science », in Timothy Dunne et al (eds), **International Relations Theories: Discipline and Diversity** (UK: Oxford University Press, 2007). p 26.
- <sup>3</sup> Alexander Wendt, Constructing International Politics, *International Security*, Vol 20, N° 01 Summer 1995, p71.
- <sup>4</sup> Kimberly Hutchings, «The Nature of Critique in Critical International Relations Theory» in Richard Wyn Jones (ed), **Critical Theory and World Politics** (USA: Lynne Rienner Publishers, 2001). p 80.
- <sup>5</sup> Idem.
- <sup>6</sup> جميل حمداوي، "النظرية النقدية أو مدرسة فرانكفورت". على الرابط:  
[http://www.alukah.net/publications\\_competitions/0/38934](http://www.alukah.net/publications_competitions/0/38934)
- <sup>7</sup> ماكس هوركهايمر، النظرية النقدية والنظرية التقليدية. ترجمة: مصطفى الناي (الدار البيضاء: عيون المقالات، ط1، 1990). ص75.
- <sup>8</sup> إيان كريب، النظرية الاجتماعية: من بارسونز إلى هابرماس. ترجمة: محمد حسين غلوم (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، العدد 244، 1999). ص307.
- <sup>9</sup> المرجع نفسه، ص ص 307-308.
- <sup>10</sup> Juanta Elias and Peter Sutch, **International Relations: The Basics** (London: Routledge, first edition, 2007). p116.
- <sup>11</sup> Fred Chernoff, **Theory and Metatheory in International Relations: Concepts and Contending Accounts** (Palgrave Macmillan, first edition, 2007). p172.
- <sup>12</sup> جميل حمداوي، مرجع سابق.
- <sup>13</sup> Richard Wyn Jones, «Introduction: Locating Critical International Relations Theory», in Richard Wyn Jones et al (ed), op. cit., p 05.
- <sup>14</sup> Idem.
- <sup>15</sup> Ibid, p 06.
- <sup>16</sup> مصباح عامر، نظرية العلاقات الدولية: الحوارات النظرية الكبرى (القاهرة: دار الكتاب الحديث، 2009). ص188.
- <sup>17</sup> المرجع نفسه، ص189.
- <sup>18</sup> جميل حمداوي، مرجع سابق.
- <sup>19</sup> مصباح عامر، مرجع سابق، ص189.
- <sup>20</sup> Juanta Elias and Peter Sutch, op. cit. p 117.
- <sup>21</sup> جميل حمداوي، مرجع سابق.
- <sup>22</sup> جوني عاصي، النظرية والإيديولوجية في العلاقات الدولية منذ نهاية الحرب الباردة (فلسطين: معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية، ط1، 2006). ص55.
- <sup>23</sup> Juanta Elias and Peter Sutch, op. cit. p 116.
- <sup>24</sup> Kimberly Hutchings, op. cit. p 81.
- <sup>25</sup> مارتن غريفثيس وتيري أوكلهان، المفاهيم الأساسية في العلاقات الدولية (الإمارات العربية المتحدة، مركز الخليج للأبحاث، 2008). ص439.
- <sup>26</sup> آلن هاو، مرجع سابق، ص20.
- <sup>27</sup> المرجع نفسه، ص21.
- <sup>28</sup> المرجع نفسه، ص 21.

